البحوث

أثر السيول على مدينة مكة المكرمة في العصر المماليكي (٦٤٨– ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠–١٥١٧م)

د. فيصل عبدالله بني حمد

يركز البحث على إحدى الظواهر الطبيعية التي تتعرض لها مدينة مكة المكرمة لطبيعتها الجغرافية، وهي ظاهرة السيول الجارفة، ويحصي البحث خلال العصر المماليكي ٢٧ سيلاً تسببت في خسائر فادحة وأضرار كبيرة بالأنفس والممتلكات والمنشآت، ومن تلك الآثار السلبية وفاة كثير من الناس، وانتشار الأمراض، وتهدم المباني وتضرُّر الثروة الزراعية، ومنها الآثار الإيجابية مثل قدوم موسم زراعي جيد وتوفير كميات كبيرة من المياه. ويركز البحث على جهود السلاطين المماليك لمواجهة تلك السيول والحد من آثارها، وينوه البحث بالاحتياطات الهندسية التي اتخذتها الحكومة السعودية للوقاية من تلك الأخطار لا سيما في التوسعة المعمارية الأخيرة.

The Impact of Floods on Makkah al-Mukarramah in the Mamluk Era (1250-1517)

Dr. Faisal Abdullah Bani Hamad

The study sheds light on the sweeping floods witnessed by Makkah al-Mukarramah due to its geographical location. This phenomenon occurred 17 times in the Mamluk era, resulting in huge losses and heavy casualties in souls, properties and facilities. However, these floods also had some positive effects, as they pointed to a good agricultural season and a plentiful supply of water. The study focuses on the sultans' efforts to overcome such floods and limit their impacts. It also highlights the engineering precautions taken by the Saudi government to prevent such threats, especially in the recent architectural expansion.

قدم للنشر في ١٤٣٥/٧/٧هـ، وقبل للنشر في ١٤٣٦/٣/٩هـ

قسم التاريخ - كلية التربية - جامعة حفر الباطن

Department of History
College of Education
University of Hafr Al Batin

faisalbaeyhamad66@hotmail.com

لاحظ الباحث تكرار حدوث السيول في مدينة مكة[١] المكرمة خلال العصر المماليكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥-١٥١٧م)، وما نتج عنها من أضرار بالغة بشرية أو مادية. فضلاً عن ذلك؛ فإن هذا الموضوع - كما يبدو- لم يبحث من قبل، الأمر الذي شجع الباحث على دراسته، سيما أن هناك مادة علمية لا بأس بها توافرت عنه في بعض المصادر التاريخية، وبخاصة المصادر المحلية، مثل كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي[٢] (ت٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م)، وكتاب إتحاف الورى بأخبار أم القرى لابن فهد[٣] (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)، وغيرهما.

ومن الدراسات الحديثة الجادة التي أفادت البحث تلك الدراسة التي أعدها هشام عبدالعزيز بعنوان السيول في مكة

(١) مكة: اختلفت آراء المؤرخين حول أسباب هذه التسمية. منها: أنها تمُك الجبارين أي تذهب نخوتهم. وقيل: سميت مكة لازدحام الناس بها، ورأي ثالث يرى أن سبب التسمية يعود إلى وقوعها بين جبلين مرتفعين عليها، وهي في هبطة بمنزلة المكوك، وقيل غير ذلك. ولمكة أسماء كثيرة مثل: بكة، والنساسة، وأم رحم، وأم القرى، ومعاد، والحاطمة، والبيت العتيق، والحرم، وصلاح، والبلد الأمين وغيرها. لمزيد من المعلومات انظر: أحمد الهمذاني بن الفقيه، (ت٣٣٤هـ/ ٩٤٦م): **مختصر كتاب البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م، ص٢٠؛ ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، جـ٥، ص١٨١-١٨٢؛ محمد عبدالمنعم الحميري (ت٩٠٠هـ/ ١٥١٤م)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م، ص٩٣.

(٢) تقي الدين الفاسي (ت٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م)، **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، جـ١، تحقيق: محمد الفقي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م.

(٣) عمر بن فهد، (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م) **إتحاف الورى بأخبار أم القرى**، جـ٢، تحقيق: فهيم شلتوت، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٢٦هـ.

المكرمة بين عامي (٩٢٣-١٠٩٩هـ/ ١٥١٧- ١٦٨٧م)[٤]. ومع تأخر تأريخ هذه الدراسة، فإنها - من غير شك - قدمت معلومات مفيدة عن الموضوع.

ومع كل ما سبق ذكره؛ فإن هذا البحث واجه بعض العقبات كان من أبرزها أن المصادر المتوافرة لا تقدم معلومات وافية عن بعض السيول، وما نتج عنها من أضرار. وفي ثنايا البحث سنحاول أن نجد تفسيرًا لذلك الصمت من قبل تلك المصادر.

حاولت هذه الدراسة الإجابة عن عدد من التساؤلات، من أهمها: ما أهم الأسباب التي ساعدت على تشكل السيول؟ وكم عددها؟ وما أهم الآثار الناجمة عنها؟ ثم ما أهم الإجراءات التي اتخذتها السلطة المملوكية لمواجهة تلك السيول والتخفيف من أضرارها؟ وبناءً على ما تقدم سأبدأ بالحديث عن الموقع الجغرافي بصفته عنصرًا مؤثرًا وفعالاً في تشكل السيول، وسرعة جريانها.

الموقع الجغرافي لمكة:

تقع مدينة مكة المكرمة في واد غير ذي زرع، وتحيط بها سلسلة جبلية من جميع الجهات، فمن الجهة الجنوبية الشرقية يقع جبل أبي قبيس وهو أحد الأخشبين[٥] وهو

(٤) هشام عبدالعزيز، **السيول في مكة المكرمة بين عامي (٩٢٣-١٠٩٩هـ/ ١٥١٧-١٦٨٧م)**، الجمعية التاريخية السعودية، رمضان ١٤٢٧هـ/ نوفمبر ٢٠٠٦م، ص٢٥- ٢٦.

(٥) الأخشبان: وهما جبل أبي قبيس والجبل الأحمر. والأخشب ما غلظ من الأرض، فكل غليظ يقال له أخشب وخشب. محمد بن العبدري، (ت ق٨هـ/ ١٤م)، **رحلة العبدري**، تحقيق: علي الكردي، ط٢، دار سعد الدين، دمشق، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٣٦٥.

أقل ارتفاعًا من غيره، ويقابل ركن الحجر الأسود[٦] من جهة الصفا[٧]. وإلى جانب الأخشبين يقع جبل قعيقعان[٨]. ومن الشمال يقع الجبل الأحمر والخندمة المعروف عند العامة (بأجياد الأكبر وأجياد الأصغر)[٩] إضافة إلى جبل حراء وجبل الطير[١٠]. وفيما يأتي جدول بأهم جبال مكة من حيث موقعها من المسجد الحرام، وارتفاعها، وخصائصها[١١]:

(٦) محمد بن عبد الله بن بطوطة (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، **رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار في غرائب الأبصار وعجائب الأسفار)**، تحقيق: عبدالهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٩٧م، جـ١، ص٣٦٨.

(٧) محمد بن أحمد المقدسي (ت٣٩٠هـ/ ٩٩٩م)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط٢، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٩م، ص٧٤.

(٨) جبل قعيقعان: سمي بذلك لقعقعة السلاح؛ لأن بعض القبائل العربية التي خرجت من بلاد اليمن تصارعت فيما بينها من أجل السيادة على مكة. يذكر البلاذري أنَّ عمرو بن مضاض الجرهمي حارب رجلاً من جرهم يقال له السّميدع، فخرج عمرو في السلاح يتقعقع، فسمي الموضع الذي خرج منه قعيقعان. أحمد بن يحيي البلاذري (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، **فتوح البلدان**، تحقيق: عبدالله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م، ص٧٠-٧١؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص١٨٥.

(٩) أجياد: عرف بذلك نسبة لأجياد الخيل وهو في أسفل مكة. يذكر البلاذري أن أجياد عرف بذلك لأن السّميدع عندما عزم على قتال عمرو بن مضاض الجرهمي (خرج مقلدًا خيله الأجراس في أجيادها، فسمّي الموضع الذي خرج منه أجياد). كما يعرف هذا الموضع عند عامة أهل مكة بجياد الصغير وجياد الكبير. البلاذري، **فتوح**، ص٧١؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص١٨٥.

(١٠) ابن بطوطة، **الرحلة**، ج١، ص٣٨٤؛ جبل الطير: يقع من جهة التنعيم، يقال: إنها الجبال التي وضع عليها الخليل إبراهيم أجزاء الطير، ثم دعاها حسبما ورد في القرآن الكريم. (البقرة:٢٦٠).

(١١) هشام عبدالعزيز، **السيول**، ص٢٥-٢٦.

جدول رقم (١)

م	اسم الجبل	موقعه بالنسبة للمسجد الحرام	ارتفاعه	خصائصه
١	أجياد	جنوب المسجد الحرام مقابل باب الملك عبدالعزيز حاليًا	٣٤٠م	انحدار طفيف
٢	قعيقعان	مشرف على المسجد من الشمال والشمال الغربي	٤٣٣م	سلسلة جبلية لها قمتان وهو أحد الأخشبين
٣	أبو قيس	شرق المسجد، على بعد عدة أمتار منه ويقع بين شعب علي وأجياد السد	٤٦١م	منحدر انحدارًا شديدًا باتجاه الشرق والشمال الشرقي
٤	النور (حراء)	شمال شرق المسجد	٤٦٢م	من الجبال الانفرادية، مساحته ٥,٢٥ كم٢، فيه الغار المشهور (حراء).
٥	أذاخر	شمال المسجد، يقع في حي المعابدة	٤٨٠م	سلسلة جبلية
٦	الخندمة	شرق المسجد وجنوبه الشرقي ويتصل بجبل أبي قبيس	٥٨٧م	سلسلة جبلية مساحتها ٨,٩ كم٢.
٧	ثور	جنوب المسجد، على بعد (٥ كم) منه	٧٥٥م	جبل مستدير نسبيًا له قمم متعددة فيه غار ثور المشهور في الإسلام.

تابع الجدول رقم (١)

م	اسم الجبل	موقعه بالنسبة للمسجد الحرام	ارتفاعه	خصائصه
٨	ثبير	شرق المسجد، يبعد منه (٤ كم) في الجهة الشمالية الشرقية لجبل حراء	٨٥٦م	مساحته ١٢,٢ كم٢
٩	الأحدب	شرق المسجد على بعد (٩ كم) منه شمال مزدلفة يقع بين جبل ثبير والطارقي	٨٦٩م	مساحته ١٢,٢كم٢ ، شكله طولي، سلسلة جبلية شديدة الانحدار، متعددة القمم. منه يسيل وادي أفاعية الذي يكون صدر وادي إبراهيم.
١٠	الطارقي	شرق المسجد على بعد ١٠ كم قرب حدود الحرم الشرقية	٩٨٣	جبال طويلة شديدة الانحدار وقممها متعددة مساحتها ١٠ كم٢

يتضح مما سبق أن أعلى الجبال المحيطة بالمسجد الحرام تقع في الجهة الشرقية، مثل جبل الطارقي، وجبل الأحدب، وجبل ثبير. وارتفاع هذه الجبال يراوح بين (٨٥٦م و٩٨٣م)، ومعنى ذلك أن اندفاع السيول كان أكثر قوة من هذه الجهة، في حين انخفض مستوى السيول في الناحيتين الشمالية والجنوبية؛ لأن ارتفاع الجبال في هاتين الجهتين لا يزيد على (٧٥٥م) فقط. ولمزيد من الإيضاح انظر الشكل البياني رقم (١) الوارد في ملحق البحث.

وإذا نظرنا إلى طبوغرافية مكة نلحظ أنها تقع في منطقة منخفضة، حيث وصفها العبدري بقوله: "بلدة كبيرة متصلة البنيان في بطن واد بين جبال محيطة بها، لا يراها القاصد إليها حتى يشرف عليها"(١٢). لذلك تركزت أحياؤها في الوسط، وعلى جوانب وادي إبراهيم عليه السلام، وهذا الوادي يخترق مدينة مكة من أعلاها إلى أسفلها، فالشكل العام للمدينة مستطيل، فطولها نحو ميلين، أي ما يعادل (٤ كم) تقريبًا(١٣). أما عرضها فلم يزد على ميل واحد(١٤) أي ما يعادل (٢ كم) تقريبًا.

وامتدت بيوت مكة مع الوادي، حيث بُنيت من الحجارة السوداء والبيضاء ذات الملمس الناعم(١٥) التي جُلبت من

(١٢) العبدري، **الرحلة**، ص٣٦٤.

(١٣) فالتر هنتس، **المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري**، ترجمه عن الألمانية، كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٧٠م، ص٩٥.

(١٤) أبو القاسم محمد بن حوقل (ت٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)، **المسالك والممالك**، بريل، ليدن، ١٨٧٤م، ص٢٣-٢٤؛ محمد الإدريسي (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، م١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت)، ص١٣٩.

(١٥) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص١٨٧.

بعض جبالها المحيطة بها[١٦]. ولعل هذا النوع من البناء كان فيه منعة وحصانة لها من خطر تلك السيول الجارفة.

أما الطبقات العليا لتلك المساكن فقد استخدم الآجر في عمارتها، ويبدو أن هذا النوع من البناء كان يلائم طبيعة مناخ مكة الحار صيفًا، والمعتدل شتاءً. وقد وصف ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) تلك المباني الشامخة بقوله: "وعلوها آجر كثيرة الأجنحة من خشب الساج، وهي طبقات لطيفة مبيضة، حارة في الصيف إلا أن ليلها طيب، وقد رفع الله عن أهلها مؤونة الاستدفاء وأراحهم من كلف الاصطلاء، وكل ما نزل عن المسجد الحرام يسمونه المسفلة، وما ارتفع عنه يسمونه المعلاة. وعرضها سعة الوادي، والمسجد في ثلثي البلد إلى المسفلة، والكعبة في وسط المسجد"[١٧].

وسوف نلحظ من خلال دراستنا لآثار تلك السيول التي اجتاحت مدينة مكة أن المسجد الحرام كان من أبرز الأماكن التي تعرضت للضرر جراء تلك السيول، نظرًا لموقعه المتوسط في وادي إبراهيم. كما واجه قسم كبير من سكان مكة معاناة شديدة بسبب تلك السيول؛ لأن معظم تلك التجمعات السكانية تركزت قرب المسجد الحرام.

يتبين مما سبق أن الطبيعة الجغرافية لمكة المكرمة كانت من أهم العوامل التي ساعدت على تشكّل السيول وسرعة جريانها، فضلاً عن ذلك؛ فمدينة مكة كانت خالية تمامًا من السدود المائية التي قد تمنع من تشكّل السيول. فمعظم ماء

(١٦) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص١٣٩.

(١٧) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص١٨٧.

المطر ذهب سدى، ولم يخزّن منه إلا كميات قليلة في بعض البرك[١٨] والآبار[١٩]. ومعنى ذلك أن الشريحة الكبرى من الناس كان اعتمادها الرئيس على ماء زمزم[٢٠].

وزاد الطين بلة قلة المسطحات الزراعية في مكة، التي قد تساعد على منع تشكل السيول؛ فليس في مكة شجر كثير إلا شجر البادية وبعض أشجار النخيل[٢١]. وهذا غير كافٍ للتصدي لسرعة جريان الماء. ومما زاد الأمر سوءًا أن معظم البيوت السكنية في مكة كانت خالية من الأسوار الخارجية[٢٢] لذا أصبحت أكثر عرضة لخطر تلك السيول الجارفة كما سنلحظ بعد قليل.

دراسة تحليلية للجداول الخاصة بالسيول والشكل البياني رقم (٢):

نلحظ من خلال دراسة الجداول الآتية الخاصة بالسيول، والشكل البياني رقم (٢) الملحق في نهاية البحث، ما يأتي:

أولاً: بلغ عدد السيول التي اجتاحت مدينة مكة المكرمة في العصر المماليكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)، نحو سبعة وعشرين سيلاً، ففي عهد الدولة البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م) تعرضت مكة إلى ستة سيول فقط، ويتبين ذلك من خلال الجدول الآتي، ورقمه (٢).

(١٨) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص٧٤.

(١٩) الفاسي، **العقد**، ج١، ص١٢٤-١٢٥.

(٢٠) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص١٨٧.

(٢١) ابن حوقل، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م، ص٣٧؛ الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص١٤٠؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص١٨٧.

(٢٢) العبدري، **الرحلة**، ص٣٦٤.

جدول رقم (٢)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
١	(٦٥١هـ/ ١٢٥٣م)	المعز عز الدين أيبك (٦٤٨-٦٥٥هـ/ ١٢٥٠-١٢٥٧م)	وفيها جاء مكة سيل دون ذكر نتائجه[٢٣].	لم تذكر المصادر
٢	ليلة (شعبان/ ٦٦٩هـ/ مارس ١٢٧٠م)	الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٧م)	دخل الكعبة، ومات بسببه عدد كثير من الناس، "بعضهم حملهم وبعضهم طاحت الدور عليهم"[٢٤]. لم يسمع بمثله في هذه الأعصار وألقى كل زبالة كانت في المعلاة في الحرم، وعظم خوف الناس بسببه من الهدم والغرق[٢٥].	لم تذكر المصادر

(٢٣) الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٧؛ ابن فهد، **إتحاف**، ج٢، ص٧٥، عبدالقادر الجزيري، (ت٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م)، **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠٠٢م، ج١، ص٣٧٦.

(٢٤) الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٧؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٣٧٩.

(٢٥) ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص١٠٠؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٣٧٩.

تابع الجدول رقم (٢)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
٣	ليلة الأربعاء (١٦ الحجة ٧٣٠هـ/ ٣١ أغسطس ١٣٣٠م)	الناصر محمد بن قلاوون : المرة الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣١٠-١٣٤٠م).	نتج عنه آثار إيجابية وسلبية، فذكر الفاسي ذلك بقوله: إنه حدث في هذه السنة "سيل عظيم بلا مطر بعد الحج"(٢٦) حيث امتلأت منه البرك التي في المعلاة وعند المولد النبوي وخرب البساتين، وعم المسجد الحرام بالأوساخ(٢٧).	لم تذكر المصادر
٤	(٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)	الناصر محمد بن قلاوون : المرة الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣١٠-١٣٤٠م).	حدثت في هذه السنة أمطار غزيرة رافقها حدوث عدة صواعق نتج عنها وفاة ثلاثة أفراد(٢٨).	لم تذكر المصادر

(٢٦) الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٧؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٣٩٨.

(٢٧) ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص١٩٣.

(٢٨) شمس الدين بن الجزري (ت٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م)، **تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه**، المعروف بتاريخ ابن الجزري، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج٢، ص٦٠٠؛ الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٧.

تابع الجدول رقم (٢)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
٥	سيل قناديل المطاف/ ليلة الخميس (١٠ جمادى الأولى ٧٣٨هـ/ ٦ يناير ١٣٣٧م)	الناصر محمد بن قلاوون : المرة الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣١٠-١٣٤٠م).	عرف هذا السيل بسيل قناديل المطاف لأن الماء بلغ بعض قناديل المطاف فعمل على أطفائها، كما خلع بعض أبواب الحرم وطاف بها وبالمنابر كل واحد إلى جهة، ويضيف الفاسي: وفعل أمورًا أخرى عجيبة، ولم يأت بعده سيل يشبهه فيما علمت إلا سيل اتفق في ليلة الخميس ١٠ جمادى الأولى ٨٠٢هـ [٢٩] / ٦ يناير ١٣٣٧م وامتلاءت بئر زمزم وابتلت المصاحف وغرق ثمان نساء داخل الحرم، وأربعة أشخاص خارج المسجد، كما أحدث خرابا في معظم قبور المعلاة، وخرب باب المعلاة ودرب اليماني	بادر قاضي مكة شهاب الدين الطبري ومعه بعض بني شيبة ، والفراشين بإخراج الرباع والمصاحف ثم عملوا على غسل البيت الحرام بماء المطر وأخرجوا ما حل به من التراب والماء والأوساخ ، كما أعادوا المقام الشريف[٣٠].

(٢٩) الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٧- ٢٠٨؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٠٣.

(٣٠) ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٢١٤.

تابع الجدول رقم (٢)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
			إضافةً إلى تدمير نحو ثمانين بيتًا تقريبًا، ونتج عن ذلك وفاة بعض أهلها ومنهم من مات تحت الردم، وكان ارتفاع الماء خارج الحرم قامة ونصفًا، "وكان أمرًا مهولاً: قدره قادر يقول للشيء كن فيكون، ولو دام ذلك النوء إلى الصباح لغرقت مكة - والعياذ بالله تعالى"(٣١).	
٦	(١٩/رجب ٧٧٤هـ/ نوفمبر ١٣٤٦م)	سيف الدين شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦-٧٤٧هـ/ ١٣٤٥-١٣٤٦م)	حدث السيل يوم الاثنين ما بين صلاة الظهر والعصر وجرى في وادي إبراهيم فأخذ الكرانيف(٣٢) ودخل الحرم فامتلأ المطاف إلى	بدئ العمل بتنظيف الحرم يوم الأربعاء أي بعد يومين من السيل(٣٣).

(٣١) ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٢١٣؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٠٣.

(٣٢) الكرانيف: أصول سعف النخيل. ابن منظور، **لسان العرب**، مادة كرنف.

(٣٣) ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٢٣٤.

تابع الجدول رقم (٢)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
			أن بلغ باب البغلة[٣٤] وكان في باب إبراهيم أخشاب طافت على الماء وامتلأ بازان وامتلأ أجياد والمصافي[٣٥].	

أما في عهد الدولة البرجية (الجراكسة) (٧٨٤-٩٢٣هـ/ ١٣٨٢-١٥١٧م)، فبلغ عدد السيول التي اجتاحت مدينة مكة واحدًا وعشرين سيلاً، ويتضح ذلك من خلال الجدول الآتي، ورقمه (٣).

(٣٤) باب البغلة: أحد أبواب شق المسجد اليماني الذي يلي الوادي، وهو باب بني سفيان بن عبدالأسد. محمد بن عبدالملك الأزرقي (ت٢٥٠هـ/ ٨٦٤م)، **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، تحقيق: رشدي ملحس، ط٨، مكتبة خياط، بيروت، ١٩٦٦م، ج٢، ص٨٩.

(٣٥) ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٢٣٤.

جدول رقم (٣)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
١	ليلة الخميس (١٠ جمادى الأولى ٨٠٢هـ/ ٩ يناير ١٤٠٠م)	الناصر فرج بن برقوق (٨٠١-٨١٥هـ/ ١٣٩٩-١٤١٢م).	نتج عنه غرق المسجد الحرام ومنه الكعبة، وسقطت بعض أعمدته، كما هدمت مجموعة كبيرة من المنازل(٣٦) ومات جراء ذلك نحو ستين نسمة، فبعضهم مات غرقًا، ومنهم من مات تحت الردم(٣٧). ويرى الفاسي أن هذا السيل يشبه السيل الذي حدث سنة (٧٣٨هـ / ١٣٣٧م) إذ يتفقان في الوقت، فكلاهما حدث في ليلة الخميس ١٠ جمادى الأولى(٣٨)، وكلاهما بلغ فيه الماء حتى القناديل(٣٩).	لم تذكر المصادر

(٣٦) شمس الدين السخاوي (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، **الذيل التام على دول الإسلام**، تحقيق: حسن إسماعيل مروة، ط١، دار ابن العماد، بيروت، ١٩٩٢م، ج١، ص٤٠٧.

(٣٧) ابن شاهين الظاهري (ت٩٢٠هـ/ ١٥١٤م) **نيل الأمل في ذيل الدول**، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م، ق٣، ج١، ص٣٦. الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٢٨.

(٣٨) الفاسي، **العقد**، ج١ ص٢٠٨؛ ابن فهد، **إتحاف**، ج٤، ص٤١٩-٤٢٠.

(٣٩) السخاوي، **الذيل**، ج١، ص٤٠٧.

تابع الجدول رقم (٣)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
٢	(٢٢ ذي الحجة ٨١٤هـ/ ٧ أبريل ١٤١٢م)	الناصر فرج بن برقوق (٨٠١-٨١٥هـ/ ١٣٩٩-١٤١٢م).	نتج عنه هدم سدود العيون، كما دخل السيل إلى المسجد الحرام، وارتفع الماء إلى ثلثي منبر الخطابة[٤٠].	جرت صيانة الكعبة، وإصلاح ما نتج عن ذلك السيل من أضرار[٤١].
٣	ليلة آخر (ذي الحجة ٨٢٥هـ/ ١٥ ديسمبر ١٤٢٢م)	الأشرف سيف الدين برسباي (٨٢٥- ٨٤١هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٨م).	دخل السيل إلى المسجد الحرام من عدة أبواب حتى أصبح الماء قريبًا من باب الكعبة، فعام فيه بعض المنابر، مخلفًا بذلك كميات كبيرة من الأوساخ. كما أحدث خرابًا واضحًا في سور باب المعلاة[٤٢]. ويذكر الجزيري أن هذا السيل دخل من الجهة اليمانية والشرقية "وقل أن	هدمت عتبة باب إبراهيم من أجل إخراج الماء من الحرم، كما عمل الناس على تنظيف المسجد الحرام وما علق به من الوحل والطين والأوساخ[٤٣].

(٤٠) ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٤٨٨.

(٤١) المصدر السابق، ج٣، ص٤٨٨؛ الفاسي، **العقد**، ج١، ص٥٠.

(٤٢) الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٨.

(٤٣) ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٥٨٩.

تابع الجدول رقم (٣)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
			يعهد دخول السيل الجهة الشرقية" ونتج عنه وفاة أربعة أشخاص(٤٤). كما سبب تلفًا لبعض السلع التجارية الموجودة بسوق الليل(٤٥).	
٤	ليلة (٣ جمادى الأولى ٨٢٧هـ/ ٤ مـــــارس ١٤٢٤م)	الأشـــرف ســـيف الـــدين بـرسـبـاي (٨٢٥- ٨٤١هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٨م).	دخل السيل المسجد الحرام، وبلغ الماء قرب الحجر الأسود، حيث أحدث خرابًا في سور باب الماجن(٤٦). كما حمل معه إلى المسجد "أوساخًا كثيرة من الزبل والطين"(٤٧).	لم تذكر المصادر

(٤٤) الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٤٠.

(٤٥) ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٥٨٩.

(٤٦) الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٨؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٤٢.

(٤٧) ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٦٠٧.

تابع الجدول رقم (٣)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
٥	ليلة الجمعة (١٦ جمادى الأولى ٨٣٧هـ/ ١ يناير ١٤٣٤م)	الأشرف سيف الدين برسباي (٨٢٥- ٨٤١هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٨م).	كان اندفاع السيل شديداً ولعل السبب أن سيل وادي إبراهيم التقى سيل وادي أجياد عند باب الحزورة (من أبواب الحرم يقع في الجهة الغربية) فدخل الاثنان المسجد الحرام، وبلغ الماء مقدار أربع أذرع، وتهدم بسببه عدد كبير من الدور زادت على ألف دار[٤٨]. ومات جراء ذلك عشرون شخصا، منهم اثنا عشر تحت الردم والباقي غرقًا، وبسبب كثرة الأمطار دلف سقف الكعبة حتى ابتلت منه الكسوة التي بداخلها، وامتلأت قناديلها ماء وحدث عقبه وباء[٤٩].	لم تذكر المصادر

(٤٨) ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) **إنباء الغمر بأبناء العمر**، تحقيق: حسن حبشي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٨م، ج٣، ص٥١٤؛ ابن شاهين الظاهري، **نيل الأمل**، ق٤، ج١، ص٣٤٧؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٥٠؛ شهاب الدين بن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م) **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق: عبدالقادر ومحمود الأرناؤوط ، ط١، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٩٣م، ج٩، ص٣١٨.

(٤٩) ابن فهد، **إتحاف**، ج٤، ص٦٩-٧٠ ؛ ابن شاهين الظاهري، **نيل الأمل**، ق٤، ج١، ص٣٤٨؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٥١.

تابع الجدول رقم (٣)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
٦	يوم الأحد (١٣ ذي القعدة ٨٤١هـ/ ٩ مايو ١٣٤٨م)	الأشرف سيف الدين برسباي (٨٢٥- ٨٤١هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٨م).	يظهر أن هذا السيل يشبه السيل السابق الذي حدث سنة (٨٣٧هـ١٤٣٤/م) إذ اتحد سيل وادي إبراهيم مع سيل أجياد فدخل السيل المسجد الحرام من الجهة الشرقية واليمانية بشكل مفاجئ حين كان الناس في صلاة العصر "فأسرع الإمام بالناس وذهب من المسجد خوفًا من أن يكثر السيل"(٥٠)؛ فكما يقول ابن شاهين الظاهري: "وفيه هجم سيل عظيم بمكة على المسجد الحرام حتى ملأه، وذلك من غير أن يتقدم بمكة المشرفة مطر، حتى عُدَّ من النوادر"(٥١). "ولم يحصل في المسجد من الماء إلا فرش المسجد فقط. ثم جف السيل في وقته"(٥٢).	شرع في اليوم التالي في إزالة معظم ما خلفه السيل في المسجد الحرام من أتربة ومخلفات(٥٣).

(٥٠) ابن فهد، **إتحاف**، ج٤، ص١١٦.

(٥١) ابن شاهين الظاهري، **نيل الأمل**، ق٥، ج٢، ص٣٧.

(٥٢) ابن فهد، **إتحاف**، ج٤، ص١١٦.

(٥٣) المصدر السابق، ج٤، ص١١٦.

تابع الجدول رقم (٣)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
٧	الاثنين (١٧ ذي الحجة ٨٥٩هـ/ ٢٩ نوفمبر ١٤٥٥م)	الأشرف سيف الدين إينال العلائي (٨٥٧-٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦١م)	في ضحى ذلك اليوم سال وادي إبراهيم فدخل السيل المسجد الحرام من أبوابه من الجهة الشرقية واليمانية، فارتفع الماء حتى قارب الحجر الأسود(٥٤)، حاملاً معه "أوساخًا كثيرة من الرمل والطين"(٥٥).	كُسرت عتبة باب إبراهيم لتصريف المياه(٥٦).
٨	الاثنين (٨ محرم ٨٦١هـ/ ٧ ديسمبر ١٤٥٦م)	الأشرف سيف الدين إينال العلائي (٨٥٧-٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦١م)	حدث عقب صلاة العصر إذ اتحد سيل وادي إبراهيم مع سيل أجياد فدخل السيل المسجد الحرام من باب إبراهيم وباب حزورة وباب أم هانئ وباب مدرسة الشريف(٥٧).	لم تذكر المصادر

(٥٤) المصدر السابق، ج٤، ص٣٥٠؛ السخاوي، **الذيل**، ج٢، ص١٠٣؛ ابن العماد الحنبلي، **شذرات**، ج٩، ص٤٣٠.

(٥٥) ابن فهد، **إتحاف**، ج٤، ص٣٥٠.

(٥٦) السخاوي، **الذيل**، ج٢، ص١٠٣.

(٥٧) ابن فهد، **إتحاف**، ج٤، ص٣٧٠.

تابع الجدول رقم (٣)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
٩	الثلاثاء (٣ جمادى الأولى ٨٦١هـ/ ٣٠ يناير ١٤٥٧م)	الأشرف سيف الدين إينال العلائي (٨٥٧-٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦١م)	حدث وقت العصر، وهو يشبه السيل الذي قبله فقد التقى سيل وادي إبراهيم سيل أجياد فدخل السيل المسجد الحرام. وتكرر السيل مرة أخرى في ليلة الأربعاء - أي في اليوم التالي- حيث تكرر المشهد نفسه إذ انضم سيل وادي إبراهيم مع سيل أجياد فدخل السيلان المسجد الحرام من باب إبراهيم. ولا تذكر المصادر ما نتج عنهما(٥٨).	لم تذكر المصادر
١٠	الجمعة (١٤ جمادى الأولى ٨٦٣هـ/ ٢٠ يناير ١٤٥٨م)	الأشرف سيف الدين إينال العلائي (٨٥٧-٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦١م)	حدث في ضحى يوم الجمعة ويظهر أن ذلك السيل كان ضعيفًا مع اتحاد سيل وادي إبراهيم مع سيل أجياد لكنه لم يدخل المسجد الحرام(٥٩).	لم تذكر المصادر

(٥٨) المصدر السابق، ج٤، ص٣٧٠.

(٥٩) المصدر السابق، ج٤، ص٣٩٥.

تابع الجدول رقم (٣)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
١١	ليلة الاثنين (١٤ صفر ٨٦٥هـ/ ٣٠ نوفمبر ١٤٦٠م)	الأشرف سيف الدين إينال العلائي (٨٥٧-٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦١م)	حدث سيل وادي إبراهيم فدخل المسجد الحرام من باب السلام من الجهة الشرقية كما دخل من أبوابه بجانبه اليماني، حاملاً معه الوحل والطين(٦٠).	لم تذكر المصادر
١٢	(١٩ رمضان ٨٦٥هـ/ ٢٩ يوليو ١٤٦١م)	الظاهر سيف الدين خُشقدم (٨٦٥-٨٧٢هـ/ ١٤٦١-١٤٦٧م)	دخل الكعبة وارتفع الماء فوق عتبة الكعبة بنصف ذراع، كما فاض بئر زمزم، ويعلق الجزيري على ذلك بقوله: "ولم يعهد مثله"(٦١).	لم تذكر المصادر
١٣	يوم السبت (٩ شوال ٨٦٥هـ/ ١٩ يونيو ١٤٦١م)	الظاهر سيف الدين خُشقدم (٨٦٥-٨٧٢هـ/ ١٤٦١-١٤٦٧م)	حدث قبيل العصر وكان شديدًا فسال وادي إبراهيم فدخل المسجد الحرام من جميع أبوابه الشرقية واليمانية فنتج عنه أن الماء بلغ عتبة باب الكعبة ثم ارتفع نصف ذراع كما ارتفع الماء فوق خرزة بئر زمزم مقدار ذراع وغمر الماء	لم تذكر المصادر

(٦٠) المصدر السابق، ج٤، ص٤١٦.

(٦١) الجزيري، **الدرر**، ج٤، ص٤٦٥.

تابع الجدول رقم (٣)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
			صحن دار الندوة، وعلق ابن فهد على قوة هذا السيل بقوله: "وهذا لم يعهد"(٦٢).	
١٤	(٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م)	الظاهر سيف الدين خُشقدم (٨٦٥-٨٧٢هـ/ ١٤٦١-١٤٦٧م)	كان سيلاً مهولاً وصل إلى قريب قفل باب الكعبة، وغرق مقام الخليل، ومات فيه خمسة أشخاص وأخذ نحوًا من مئتي دينار وقيل خمسمائة"(٦٣).	لم تذكر المصادر
١٥	الأربعاء (١٨ ربيع الآخر ٨٧٦هـ/ ٥ أكتوبر ١٤٧١م)	الأشرف سيف الدين قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/ ١٤٦٨-١٤٩٦م)	دخل السيل المسجد الحرام، وبلغ الماء قرب قفل باب الكعبة فنتج عنه غرق المقام، وهلاك خمسة أفراد، بالإضافة إلى بعض الخسائر المادية التي قدرت ما بين مائتين إلى خمسمائة دينار. كما نتج عنه هدم بعض الدور وإلحاق أضرار بالغة بسوق الليل(٦٤).	لم تذكر المصادر

(٦٢) ابن فهد، **إتحاف**، ج٤، ص٤١٩.

(٦٣) ابن شاهين الظاهري، **نيل الأمل**، ق٦، ج٢، ص١٦١.

(٦٤) ابن فهد، **إتحاف**، ج٤، ص٤٤٢-٤٤٣.

تابع الجدول رقم (٣)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
١٦	الثلاثاء (١١ جمادى الأولى ٨٧٦هـ/ ٢٧ أكتوبر ١٤٧١م)	الأشرف سيف الدين قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/ ١٤٦٨-١٤٩٦م)	حدث سيل أجياد أولاً ثم أعقبه سيل وادي إبراهيم فدخل المسجد الحرام عبر أبوابه الشرقية واليمانية حاملاً معه الأوساخ والطين[٦٥].	تم تنظيف المسجد بعد أن تم جمع البطحاء والتراب منه[٦٦].
١٧	ليلة الثلاثاء (١٠ جمادى الآخرة ٨٧٨هـ/ ٤ نوفمبر ١٤٧٣م)	الأشرف سيف الدين قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/ ١٤٦٨-١٤٩٦م)	حدث سيل وادي إبراهيم فدخل المسجد الحرام من عدة أبواب ونتج عنه تعرض المسجد للأوساخ[٦٧].	

(٦٥) المصدر السابق، ج٤، ص٥٤٠.

(٦٦) المصدر السابق، ج٤، ص٥٤٠.

(٦٧) المصدر السابق، ج٤، ص٥٦٦.

تابع الجدول رقم (٣)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
١٨	الخميس (١٥ رمضان ٨٨٣هـ/ ١١ ديسمبر ١٤٧٨م)	الأشرف سيف الدين قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/ ١٤٦٨-١٤٩٦م)	التقى سيل وادي إبراهيم مع سيل أجياد فدخل السيلان المسجد الحرام من أبوابه اليمانية وباب إبراهيم وباب السلام إضافة إلى أبوابه الشامية عدا باب الزيارة(٦٨).	تم العمل على تنظيف المسجد الحرام وما علق به من الأوساخ(٦٩).
١٩	الجمعة (٢٣ رمضان ٨٨٣هـ/ ١٩ ديسمبر ١٤٧٨م)	الأشرف سيف الدين قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/ ١٤٦٨-١٤٩٦م)	سال وادي إبراهيم وكان أعظم من السيل السابق لكنه لم يصادف سيل وادي أجياد لذا كانت أضراره يسيرة فاقتصرت على حمل الأوساخ إلى داخل المسجد الحرام(٧٠).	تم تنظيف المسجد الحرام مما علق به من الأوساخ وأنجز العمل خلال شهري شوال وذي القعدة(٧١).

(٦٨) المصدر السابق، ج٤، ص٦٣٤.
(٦٩) المصدر السابق، ج٤، ص٦٣٤.
(٧٠) المصدر السابق، ج٤، ص٦٣٥.
(٧١) المصدر السابق، ج٤، ص٦٣٥.

تابع الجدول رقم (٣)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
٢٠	(٢٤ ذي القعدة ٨٨٧هـ/ ٨ يناير ١٤٨٣م)	الأشرف سيف الدين قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/ ١٤٦٨-١٤٩٦م)	نتج عنه غرق عدد كبير من الناس(٧٢)، وذلك ما لا يقل عن سبعين شخصًا(٧٣)، وفي رواية أخرى أكثر من مائة وعشرين شخصًا(٧٤). علاوة على تدمير عدة دور، بلغت نحو ربع بيوت مكة(٧٥). كما أخذ في طريقه كل شيء استطاع حمله(٧٦).	تم العمل على تنظيف المسجد الحرام وما علق به من الأوساخ(٧٧).

(٧٢) ابن العماد الحنبلي، **شذرات**، ج٩، ص ٥١٨.

(٧٣) ابن شاهين الظاهري، **نيل الأمل**، ق٧، ج٢، ص٣٣٠؛ محمد بن إياس (ت٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م)، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق: محمد مصطفى، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢-١٩٨٤م، ج٣، ص١٩٨.

(٧٤) الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٧٤.

(٧٥) ابن العماد الحنبلي، **شذرات**، ج٩، ٥١٨.

(٧٦) ابن شاهين الظاهري، **نيل الأمل**، ق٧، ج٢، ص٣٣٠؛ ابن إياس، **بدائع**، ج٣، ص١٩٨.

(٧٧) السخاوي، **الذيل**، ج٢، ص٣٥٦.

تابع الجدول رقم (٣)

م	اسم السيل وتاريخه	في عهد السلطان	آثاره	موقف الدولة وعامة الناس في الحد من آثاره
٢١	(٥/ صفر ٨٩٥هـ/ ٣٠ ديسمبر ١٤٨٩م)	الأشرف سيف الدين قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/ ١٤٦٨-١٤٩٦م)	دخل السيل المسجد الحرام، وبلغ الماء إلى الحجر الأسود، ونتج عنه هدم عدة مبان[٧٨]، لكن في الوقت نفسه كان للسيل آثار إيجابية منها: جريان أربع عيون ماء إلى مكة، فحصل بها النفع، كما عم الرخاء أرجاء مدينة مكة[٧٩].	لم تذكر المصادر

(٧٨) ابن شاهين الظاهري، **نيل الأمل**، ق٨، ج٢، ص١٨٦؛ الجزيري، الدرر، ج١، ص٤٧٦؛ ابن إياس، **بدائع**، ج٣، ص٢٧٠.

(٧٩) ابن شاهين الظاهري، **نيل الأمل**، ق٨، ج٢، ص١٨٦؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٧٦.

ثانيًا: يظهر أن معظم السيول التي دخلت المسجد الحرام كانت من الجهة الشرقية حيث كان المطر يجري عبر واد ضيق يعرف بوادي إبراهيم، ويصب في نهاية الأمر في البحر الأحمر. فهذا الوادي ينحدر من جهة الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي مكونًا بركة كبيرة تتجمع فيها مياه الأمطار(٨٠) وتحيط بالمسجد الحرام، ثم يتشكل منها سيلٌ كبيرٌ حاملاً معه الطين والتراب والأحجار والأوساخ إلى المسجد الحرام.

ثالثًا: اشتهرت بعض السيول بأسماء خاصة بها، نظرًا لشدتها، ومدى ضررها البالغ، ومثال ذلك سيل قناديل المطاف الذي اجتاح مكة في ليلة الخميس (١٠ جمادى الأولى ٧٣٨هـ/ ٦ يناير ١٣٣٧م) فعرف بتلك التسمية؛ لأن الماء بلغ قناديل المطاف فأطفأها(٨١).

الآثار المترتبة على السيول:

نلحظ من خلال دراستنا للسيول التي اجتاحت مدينة مكة خلال العصر المماليكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م) أن معظم المصادر التاريخية ركّزت على أثر السيول في المسجد الحرام، ولم تزودنا بما نتج عن تلك السيول من آثار على سائر أنحاء مدينة مكة. ولا شك أن مكانة البيت الحرام وقدسيته الدينية جعلت أفئدة المؤرخين وعقولهم تهوي إليه وتهتم به أكثر.

---

(٨٠) سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، ترجمة: علي عودة الشيوخ، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٩٩٩م، ج١، ص٩٣.

(٨١) الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٧- ٢٠٨.

وحتى تلك السيول التي دخلت إلى المسجد الحرام، فبعضها لا نعرف ما نتج عنها من آثار، ومن الأمثلة على ذلك السيل الذي حدث في سنة (٦٥١هـ/ ١٢٥٣م)[٨٢]. لكن يفهم من الروايات التاريخية أن الأضرار الناتجة عن ذلك السيل كانت محدودة وغير بالغة، أي على عكس تلك السيول التي ألحقت أضرارًا فادحة بأرواح الناس وممتلكاتهم كما سنوضح بعد قليل.

الآثار السلبية:

يمكن تصنيف السيول التي اجتاحت مدينة مكة حسب ضررها، أو الآثار الناتجة عنها، وفيما يأتي أهم الآثار السلبية الناجمة عن تلك السيول:

أولاً- وفاة أعداد كثيرة من الناس:

تسببت بعض السيول في إلحاق خسائر فادحة بالأرواح جراء الغرق، أو بسبب تصدع الدور وسقوطها على ساكنيها، فمثلا أسفر السيل الذي حدث في (ليلة شعبان ٦٦٩هـ/ مارس ١٢٢١م) عن سقوط عدد من الدور، كما تضرر كثير من الناس جراء ذلك، ومنهم من مات تحت الردم[٨٣].

(٨٢) المصدر السابق، ج١، ص٢٠٧؛ ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٧٥؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٣٧٦.

(٨٣) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: بشار عواد معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٣م، ج١٥، ص٣٠؛ الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٧؛ ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص١٠٠؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٣٧٦، ٣٧٩.

ونتج من سيل قناديل المطاف ليلة الخميس (١٠ جمادى الأولى ٧٣٨هـ/ ٦ يناير ١٣٣٧م) غرق عدد كبير من أهل مكة ومن جاء إليها من البلدان الأخرى(٨٤). ومن المؤرخين من أحصى عدد الوفيات بثماني نسوة داخل الحرم، وأربعة أفراد خارج المسجد، ولم يسلم من ذلك السيل حتى الموتى، فقد أحدث خرابًا في معظم قبور المعلاة. كما دمر أكثر من ثلاثين بيتًا(٨٥)، وفي رواية أخرى ثمانون بيتًا، ومن الناس من لقي حتفه تحت الردم(٨٦). وقد وصف ابن كثير شدة ذلك السيل بقوله: "استهل الغيث بمكة من أول الليل، فلما انتصف الليل جاء سيل عظيم هائل لم ير مثله من دهر طويل"(٨٧). أما الفاسي؛ فقال عنه: "ولو دام ذلك النوء إلى الصباح لغرقت مكة والعياذ بالله تعالى"(٨٨).

ومن السيول الجارفة التي أودت بحياة عدد كبير من الناس ذلك السيل الذي اجتاح مدينة مكة في ليلة الجمعة (١٦ جمادى الأولى ٨٣٧هـ/ ١ يناير ١٤٣٤م)، والذي نتج عنه وفاة عشرين شخصًا، منهم من مات غرقًا، ومنهم من مات تحت الردم(٨٩).

---

(٨٤) ابن الجزري، **تاريخ**، ج٢، ص١٠٣٠.

(٨٥) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، **البداية والنهاية**، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط١، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، مصر، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ج١٨، ص٣٩٩.

(٨٦) ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٢١٤؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٠٣.

(٨٧) ابن كثير، **البداية**، ج١٨، ص٣٩٩.

(٨٨) الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٧-٢٠٨.

(٨٩) ابن شاهين الظاهري، **نيل الأمل**، ق٤، ج١، ص٣٤٧- ٣٤٨؛ ابن فهد، **إتحاف**، ج٤، ص٦٩- ٧٠؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٥٠- ٤٥١.

ونتج من السيل الذي أصاب مكة في (٢٤ من ذي القعدة ٨٨٧هـ/ ٨ يناير ١٤٨٣م) غرق أكثر من سبعين شخصًا، وفي رواية أخرى مئة وعشرون نفرًا(٩٠). ويبدو أن هذه الوفيات كانت داخل المسجد الحرام، فقد ذكر السخاوي ما نجم عن ذلك السيل بقوله: "... وأما من مات فيه فخلق لا يحصيهم إلا الله، أكثرهم غرباء، والذي وجد منهم بالمسجد خاصة يزيد على مئة". ثم علق السخاوي على شدة السيل ومدى قوته بأن الله سبحانه وتعالى قد لطف بعباده، فلو كُسر باب إبراهيم "لغرقت مكة كلها"(٩١).

ثانيًا- انتشار الأمراض:

يظهر من بعض السيول إصابة عدد كبير من الناس بالأمراض المعدية، ففي سنة (٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م) تعرضت مكة إلى سيل جارف، كما انتشر الوباء فيها، فأودى بحياة أربعين شخصًا في اليوم الواحد، ويضيف ابن حجر: "وحُصر من ماتوا في ربيع الأول فكانوا ألفًا وسبعمائة، ويقال: إن إمام المقام لم يُصلّ معه في تلك الأيام إلا اثنان، وبقية الأئمة بطلوا لعدم من يصلي معهم"(٩٢).

وبعد عقد من هذه الحادثة أي في ليلة الجمعة (جمادى الأولى ٨٣٧هـ/ ٦ يناير ١٤٣٤م) دخل السيل إلى المسجد

(٩٠) ابن شاهين الظاهري، **نيل الأمل**، ق٧، ج٢، ص٣٣٠؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٧٤.

(٩١) السخاوي، **الذيل**، ج٢، ص٣٥٦.

(٩٢) ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج٣، ص٣٢٦.

الحرام، فحدث بعده وباء أسفر عن إصابة كثير من الناس وهو ما عرض حياتهم للخطر(٩٣)، وهذا يدل بوضوح على العلاقة المباشرة ما بين بعض السيول وتفشي بعض الأمراض.

ثالثًا- إلحاق أضرار بالمنشآت المعمارية الخيرية والمائية:

تنقسم المنشآت المعمارية إلى نوعين: منشآت دينية ومنشآت مدنية. والمقصود بالمنشآت الدينية البيت الحرام؛ فإذا دققنا النظر في جريان السيول يتبين أن معظم هذه السيول دخلت إلى المسجد الحرام بسبب الطبيعة الجغرافية لمكة، فالمسجد الحرام يقع في وسط وادي مقفر بين جبلين. لذا كان من الطبيعي أن يتعرض هذا المسجد لمخاطر تلك السيول الجارفة، التي ألحقت به أضرارًا مادية لعل أقلها ملء ساحاته بالطين والأتربة والحجارة والأوساخ. ومنها ما تسبب في قلع المقام عن مكانه، فمثلاً سيل القناديل الذي حدث في (١٠ من جمادى الأولى ٧٣٨هـ/ ٦ يناير ١٣٣٧م) نتج منه ارتفاع الماء حتى قناديل المطاف، وخلع أبواب المسجد الحرام، وتفرقت أجزاء المنبر في كل اتجاه(٩٤).

وكذلك الحال يقال عن السيل الذي اجتاح مكة سنة (٨٣٧هـ/ ١٤٣٤م) فقد ارتفع الماء في البيت الحرام أربعة أذرع، فبلغ قريبًا من باب الكعبة، وطاف بعض الناس سباحةً، وأزال عتبة باب إبراهيم، كما نتج منه دخول كميات كبيرة من

(٩٣) ابن شاهين الظاهري، **نيل الأمل**، ق٤، ج١، ص٣٤٨؛ ابن فهد، **إتحاف**، ج٤، ص٦٩-٧٠؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٥١.

(٩٤) ابن كثير، **البداية**، ج١٨، ص٣٩٩؛ الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٧-٢٠٨؛ ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٢١٣؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٠٣.

الطين إلى المسجد الحرام، فبلغ ارتفاعها نحو نصف ذراع[٩٥].

أما النوع الثاني من المنشآت المعمارية التي لحق بها ضرر من جراء تلك السيول فهي العمائر المدنية، وشملت البيوت أو الدور السكنية، إضافة إلى الأسواق وما حوته من سلع تجارية. فمثلاً نتج من السيل الذي داهم مكة في ليلة الجمعة (١٦ من جمادى الأولى ٨٣٧هـ/ ١ يناير ١٤٣٤م)، أضرار فادحة بالعمائر السكنية، إذ قدرت تلك الأضرار بنحو ألف بيت[٩٦].

ولم يقتصر ضرر تلك السيول على المنازل فحسب؛ بل تعدى ذلك إلى بعض الأسواق التجارية. فبالقرب من باب بني شيبة كان سوق كبير عُدّ من أشهر الأسواق، إذ احتوى على عدة أصناف من السلع، وهو من أكثر الأسواق ازدحامًا[٩٧].

لذا كان مثل هذا السوق عرضة لخطر السيول، فمثلاً نتج من السيل الذي حدث في ليلة (آخر ذي الحجة ٨٢٥هـ/ ١٥ ديسمبر ١٤٢٢م) تلف بعض السلع التجارية الكائنة في سوق الليل[٩٨]. وكذلك الحال يقال عن السيل الذي حدث يوم الأربعاء (١٨ من ربيع الآخر ٨٧٦هـ/ ٥ أكتوبر ١٤٧١م) حيث ألحق أضرارًا بالغة بسوق الليل[٩٩].

(٩٥) ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج٣، ص٥١٤.

(٩٦) ابن شاهين الظاهري، **نيل الأمل**، ق٤، ج١، ص٣٤٧؛ ابن فهد، **إتحاف**، ج٤، ص٦٩- ٧٠؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٥١.

(٩٧) العبدري، **الرحلة**، ص٣٧٢.

(٩٨) ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٥٨٩.

(٩٩) المصدر السابق، ج٤، ص٤٤٢-٤٤٣.

وأسهب السخاوي في وصف ما نتج من السيل الذي داهم مكة في (ذي القعدة ٨٨٧هـ/ يناير ١٤٨٣م) وتمثلت تلك الخسائر في اقتلاع أبواب المسجد الحرام، وإتلاف معظم ما كان بقبة العباس، وقبة الفرّاشين من الربعات والآلات وغيرها. علاوةً على تدمير معظم الأماكن المشرفة على البيت الحرام، مثل البيوت وما احتواه سوق الليل من سلع. وقدرت تلك الخسائر المادية بما لا يقل عن ربع بيوت مكة، "وتلف لأهلها وللمجاورين ما لا يدخل تحت الحصر". ولكثرة نزول الأمطار في ذلك العام آلت بعض البيوت للسقوط في كل من عرفات ومنى وجدة[١٠٠].

رابعًا- إلحاق خسائر بالثروة الزراعية:

تسببت بعض السيول في إلحاق أضرار بالغة بالثروة الزراعية، فمثلا نتج من السيل الذي اجتاح مدينة مكة في ليلة الأربعاء (١٦ من ذي الحجة ٧٣٠هـ/ ٣١ أغسطس ١٣٣٠م) إزالة مجموعة كبيرة من البساتين الواقعة في المعلاة[١٠١].

الآثار الإيجابية:

بالرغم من الآثار السلبية التي خلفتها بعض السيول التي اجتاحت مدينة مكة المكرمة وتركزت في المسجد الحرام، فإن بعضها الآخر كان له آثاره الإيجابية، فهي تُبشر بقدوم موسم زراعي جيد، فمثلاً نتج من بعض السيول توفير كميات كبيرة من مياه الشرب حيث خزنت في الصهاريج والبرك المعدة

(١٠٠) السخاوي، **الذيل**، ج٢، ص٣٥٥.

(١٠١) ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص١٩٣.

لتلك الغاية. وغالبًا ما كانت تلك الصهاريج تحفر في الأرض أو تقام تحت المباني أو بشكل انفرادي، فالسيل الذي حدث في ليلة الأربعاء (١٦ من ذي الحجة ٧٣٠هـ/ ٣١ أغسطس ١٣٣٠م) نتج منه توفير كميات كبيرة من ماء المطر حيث خزنت في البرك الواقعة في المعلاة، وعند المولد النبوي[١٠٢]، وكذلك الحال ينطبق على السيل الذي داهم مكة في (ذي القعدة ٨٨٧هـ/ يناير ١٤٨٣م) فقد ملأ معظم الصهاريج الموجودة في البلد[١٠٣].

كذلك نتج من بعض السيول زيادة نشاط بعض العيون في أنحاء مكة. فمثلاً نتج من السيل الذي حدث في (١٩ من رجب ٧٤٧هـ/ ٦ نوفمبر ١٣٤٦م) زيادة تدفق الماء في بازان وأجياد والمصافي[١٠٤].

كما أسفرت بعض السيول عن زيادة ماء زمزم، فبئر زمزم الذي يقع شرقي الكعبة[١٠٥] كان معرضًا باستمرار للزيادة، لدرجة أن الماء كان يتناول باليد في بعض الأعوام. فضلاً عن ذلك؛ فقد أسهمت بعض السيول في إزالة ما علق في ماء زمزم من الشوائب حتى أصبح الماء صافيًا خاليًا من كل طعم. ومثال ذلك ينطبق على سيل قناديل المطاف الذي اجتاح المسجد الحرام ليلة الخميس (١٠ من جمادى الأولى ٧٣٨هـ/

(١٠٢) الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٧؛ ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص١٩٣؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٣٩٨.

(١٠٣) السخاوي، **الذيل**، ج٢، ص٣٥٦.

(١٠٤) ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٢٣٤.

(١٠٥) العبدري، **الرحلة**، ص٣٦٩.

٦ يناير ١٣٣٧م)[١٠٦]، والسيل الذي حدث في سنة (٨٣٧هـ/ ١٤٣٤م) حيث نتج منهما فيضان ماء زمزم[١٠٧].

أما السيل الذي اجتاح مكة بتاريخ (٥ من صفر٨٩٥هـ/ ٣٠ ديسمبر ١٤٨٩م)، فقد نتج منه نشاط ملحوظ في جريان الماء في أربع عيون، حيث حصل النفع، وعم الرخاء جميع أرجاء مكة[١٠٨].

الإجراءات التي اتخذتها الدولة المملوكية للحد من أضرار السيول:

يظهر من دراسة الجداول أن السلطة المملوكية أولت اهتمامًا كبيرًا للوقاية من خطر السيول، ومعالجة الآثار الناتجة منها، ففي سنة (٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م) جرت صيانة عين بازان، وذلك بعد توقفها بسبب ما أصابها من ضرر نتيجة لبعض السيول الجارفة، وعلق ابن إياس على أهمية ذلك المشروع المائي بقوله: "فحصل لأهل مكة بها غاية النفع، وهي إلى الآن جارية يعم نفعها أهل مكة"[١٠٩].

كما أقيمت بعض المشروعات المائية في مدينة مكة، ففي (أواخر جمادى الأولى ٧٢٦هـ/ إبريل ١٣٢٥م) مّدت بعض القنوات المائية من عين بازان خارج مكة حتى وصلت أخيرًا إلى المنطقة الواقعة ما بين الصفا والمروة ومنها إلى باب

(١٠٦) الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٧-٢٠٨؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٠٣.

(١٠٧) ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٢١٣؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٠٣.

(١٠٨) ابن شاهين الظاهري، **نيل الأمل**، ق٨، ج٢، ص١٨٦؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٧٦.

(١٠٩) ابن إياس، **بدائع**، ج١، ق١، ص٤٥٧.

إبراهيم. ويعود الفضل في إنجاز هذا المشروع إلى بعض العراقيين الذين أسهموا بشكل كبير في تنفيذه في مدة زمنية قصيرة لم تتجاوز خمسة أشهر، حيث عاد بالفائدة على جميع سكان مدينة مكة. وتكمن أهمية هذا المشروع الحيوي في توفير المياه على مدار العام، وعلق الجزري على ذلك بقوله: "ولولا لطف الله تعالى بها على أهل مكة ما كان فيها في هذه السنة ماء بير من الآبار، بل نشفت الآبار جميعها، فلله الحمد والمنة، والماء اليوم بمكة مثل المدينة"(١١٠).

ولحماية الكعبة المشرفة من خطر السيول وضع لها باب جديد بدلاً من الباب القديم في سنة (٧٣١هـ/ ١٣٣٠م)، فالباب القديم يعود تاريخه إلى سنة (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م) أي إلى عهد الخليفة العباسي المقتفي بالله (٥٣٠-٥٥٥هـ/ ١١٣٥-١١٦٠م). أما الباب الجديد فكان على درجة عالية من الإتقان، إذ صنع من الخشب السنط الأحمر، وغطي بكميات كبيرة من صفائح الفضة، بلغ وزنها ثلاثين ألف درهم، فلما قلع الباب العتيق وزنوا ما كان عليه من الفضة فكان زنتها ستين رطلا، فأنعم بها الملك الناصر على بني شيبة خدام البيت الشريف، فتقاسموه فيما بينهم(١١١).

ونلحظ في عهد دولة الجراكسة (٧٨٤-٩٢٣هـ/ ١٣٨١-١٥١٧م) ارتفاعًا واضحًا في عدد تلك السيول، إذ بلغ عددها واحدًا وعشرين سيلاً، وذلك كما هو موضح في الجدول رقم (٢).

(١١٠) ابن الجزري، **الذيل**، ج٢، ص١١٤.

(١١١) ابن إياس، **بدائع**، ج١، ق١، ص٤٦١-٤٦٢.

ولعل ضعف الدولة وقلة أعمال الصيانة كانا من أبرز الأسباب التي أدت إلى تفاقم تلك المشكلة المائية واستمرارها.

واكتفى بعض السلاطين بإعادة إعمار ما نتج من بعض السيول من أضرار، ففي سنة (٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م) تعرض البيت الحرام إلى أضرار جسيمة نتيجة للسيل الذي اجتاحه من عدة أبواب، حتى أصبح الماء قريبًا من باب الكعبة، وأزال بعض أجزاء المنبر من مكانه، مخلفًا بذلك كميات كبيرة من الأوساخ. كما أحدث خرابًا واضحًا في سور باب المعلاة. ولعل ذلك ما دفع السلطان المملوكي الأشرف سيف الدين برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٨م) إلى إرسال الأموال إلى مكة بشكل عاجل لإعادة ما نتج من ذلك السيل من أضرار مادية(١١٢).

يتضح مما سبق أن بعض السيول أودت بحياة أعداد كبيرة من الناس، كما ألحقت أضرارًا بالغة بالمنشآت المعمارية والمادية. ولعل أسباب ذلك تكمن في تقصير بعض السلاطين في التصدي لمثل تلك السيول، علاوة على تقصير بعض أمراء مكة في القيام بواجباتهم.

موقف عامة الناس من السيول:

يظهر من دراسة الجداول السابقة أن بعض السيول كانت تحدث ليلاً، وبشكل مفاجئ والناس نائمون، لذا كان ضررها أكبر لعدم اتخاذ تدابير فعالة لمواجهتها، ويتضح ذلك من الجداول السابقة، إذ نجد أن تسعة سيول داهمت مدينة مكة

(١١٢) ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج٣، ص٢٧١.

والناس غافلون، إذ حدثت في ليلة (شعبان ٦٦٩هـ/ مارس ١٢٢١م)[١١٣]، وليلة الأربعاء (١٦ من ذي الحجة ٧٣٠هـ/ ٣١ أغسطس ١٣٣٠م)[١١٤]، وليلة الخميس (١٠ من جمادى الأولى ٧٣٨هـ/ ٦ يناير ١٣٣٧م)[١١٥]، وليلة الخميس (١٠ من جمادى الأولى ٨٠٢هـ/ ٩ يناير ١٤٠٠م)[١١٦]، وليلة (آخر ذي الحجة ٨٢٥هـ/ ١٥ ديسمبر ١٤٢٢م)[١١٧]، وليلة (٣ من جمادى الأولى ٨٢٧هـ/ ٤ مارس ١٤٢٤م)[١١٨]، وليلة الجمعة (١٦ من جمادى الأولى ٨٣٧هـ/ ١ يناير ١٤٣٤م)[١١٩]، وليلة الاثنين (١٤ من صفر ٨٦٥هـ/ ٣٠ نوفمبر ١٤٦٠م)[١٢٠]، وليلة الثلاثاء

(١١٣) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج١٥، ص٣٠؛ الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٧؛ ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص١٠٠؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٣٧٩.

(١١٤) الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٧؛ ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص١٩٣؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٣٩٨.

(١١٥) الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٧-٢٠٨؛ ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٢١٣؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٠٣.

(١١٦) الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٨؛ ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٤١٩-٤٢٠؛ ابن شاهين الظاهري، **نيل الأمل**، ق٣، ج١، ص٣٦؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٢٨.

(١١٧) الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٨؛ ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٥٨٩؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٤٠.

(١١٨) الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٨؛ ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٦٠٧؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٤٢.

(١١٩) تقي الدين المقريزي (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ج٧، ص٢٦٣؛ ابن فهد، **إتحاف**، ج٤، ص٦٩-٧٠؛ ابن شاهين الظاهري، **نيل الأمل**، ق٤، ج١، ص٣٤٧-٣٤٨؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٥٠-٤٥١.

(١٢٠) ابن فهد، **إتحاف**، ج٤، ص٤١٦.

(١٠ من جمادى الآخرة ٨٧٨هـ/ ٤ نوفمبر ١٤٧٣م)[١٢١].

أما إذا أدرك الناس أن سيلاً سيحدث في ذلك اليوم؛ فمنهم من كان يسارع للخروج من المسجد الحرام، وذلك كما حدث في يوم الأحد (١٣ من ذي القعدة ٨٤١هـ/ ٩ مايو ١٣٤٨م)، فعندما دخل السيل إلى المسجد الحرام والناس في صلاة العصر سارع الإمام إلى حث الناس على الخروج منه، وذلك قبل أن يغمرهم الماء[١٢٢].

ومن جهة أخرى؛ أشارت بعض المصادر التاريخية إلى دور العامة في تنظيف المسجد الحرام من الوحل والطين وما علق به من أوساخ، ومن الأمثلة على ذلك ما حدث عقب السيول التي اجتاحت المسجد الحرام في (١٩ من رجب ٧٤٧هـ/ ٦ نوفمبر ١٣٤٦م)[١٢٣]. وفي ليلة (آخر ذي الحجة ٨٢٥هـ/ ١٥ ديسمبر ١٤٢٢م)[١٢٤]. ووصف السخاوي موقف الناس عقب السيل الذي داهم مدينة مكة في (ذي القعدة ٨٨٧هـ/ يناير ١٤٨٣م) بأن تعذرت إقامتهم صلاة الجماعة في المسجد لعدة أيام، "وأقيمت جمعة بسطحه وشمر عالم الحجاز ساعده في تنظيف المسجد الحرام، وتجهيز ما ظفروا به من الأموات ودفنهم، واقتفى أثره من أراد الله به الخير، بحيث ما دخل الحج إلا وقد انتهى وصار ما أزيل من الطين ونحوه نحو ثلاثين

(١٢١) المصدر السابق، ج٤، ص٥٦٦.

(١٢٢) ابن فهد، **إتحاف**، ج٤، ص١١٦.

(١٢٣) ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٢٣٤.

(١٢٤) الفاسي، **العقد**، ج١، ص٢٠٨؛ ابن فهد، **إتحاف**، ج٣، ص٥٨٩؛ الجزيري، **الدرر**، ج١، ص٤٤٠.

هرمًا كل هرم كالجبل الصغير إلى أن نُقل بعد انفصال الموسم"[١٢٥].

ولشدة السيل الذي حدث في ليلة الجمعة (١٦ من جمادى الأولى ٨٣٧هـ/ ١ يناير ١٤٣٤م)، وما نتج منه من خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات، تدخل بعض التجار وعامة الناس لإصلاح ما نتج منه من أضرار خاصة بالمسجد الحرام، فقد ذكر المقريزي ما قام به الناس في صباح يوم الجمعة بعد أن شاهدوا المسجد الحرام بحرًا من الماء، حيث "أزالوا عتبة باب إبراهيم، حتى خرج الماء من المسفلة، وبقي بالمسجد طين في سائر أرضه قدر نصف ذراع في ارتفاعه، فانتدب عدة من التجار لإزالته، وتهدم في الليلة المذكورة دور كثيرة، يقول المكثر زيادة على ألف دار، ومات تحت الردم اثنا عشر إنسانًا، وغرق ثمانية أنفس، ودلف سقف الكعبة، فابتلت الكسوة التي بداخلها، وامتلأت القناديل التي بها ماء"[١٢٦].

وفي العام الموالي أي في شهر (المحرم ٨٣٨هـ/ أغسطس ١٤٣٤م) شرع سودون المحمدي[١٢٧] - المجهز لعمارة الحرمين

(١٢٥) السخاوي، **ذيل**، ج٢، ص٣٥٦.

(١٢٦) المقريزي، **السلوك**، ج٧، ص٢٦٣- ٢٦٤.

(١٢٧) سودون المحمدي: كان من جملة المماليك السلطانية في عهد السلطان المؤيد شيخ، ثم انضم لولده العزيز، فلما تسلطن الظاهر نفاه ثم أعاده وأنعم عليه بإمرة عشرة، ثم أصبح ناظرًا وشادًا لعمائر مكة في عهد السلطان الأشرف برسباي فأقام بها نحو سنتين، ثم عاد إلى القاهرة فأقام بها مدة قصيرة، ومنها رحل إلى الشام فاستقر في نيابة قلعة دمشق سنة ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م، وظل مقيمًا فيها حتى وفاته سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م. شمس الدين السخاوي (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، دار الجيل - بيروت (د.ت)، ج٣، ص٢٨٦-٢٨٧.

- في هدم سقف الكعبة[١٢٨] بالرغم من معارضة كبار أهل مكة على ذلك، فالبيت أصبح مكشوفًا دون سقف ولا كسوة، وهذا ما دفع بعض الناس للخروج من مكة خشية نزول البلاء، لكن ذلك العمل - كما يبدو - لم يكن على ما يرام، إذ أصبح سقف البيت يدلف أكثر من السابق. وعلق السخاوي على تعنت سودون المحمدي واستبداده برأيه بقوله: "وساءت سيرته بمكة لأجل هذا ونقم عليه كل أحد وصار يدلف أكثر من السقف القديم بل صار سقف البيت مأوى للطيور، وأتعب الخدم ذلك فإنهم صاروا في كل قليل يجمعون ما يتحصل من زبل الحمام وغيره، وندم هو على ما فعل وعد ذلك من سيئاته"[١٢٩].

كما أزيلت المنارة التي على الباب الأيمن من المسجد الحرام، فقد هدمت وبنيت بشكل متقن، بل أصبحت أعلى ارتفاعًا مما كانت عليه في السابق[١٣٠]، واستمر العمل قائمًا إلى أن أنهي في (ربيع الأول ٨٣٨هـ/ أكتوبر١٤٣٤م)[١٣١].

ولم يقتصر الأمر على ذلك فحسب؛ ففي (جمادى الأولى ٨٣٨هـ/ ديسمبر ١٤٣٤م) أمر السلطان المملوكي الأشرف برسباي بإرسال كميات كبيرة من الرخام من مصر إلى مكة المكرمة من أجل صيانة الحجر والبيت الحرام، كما أرسل خمسين حملاً من الجبس لتبييض أروقة المسجد الحرام،

(١٢٨) المقريزي، **السلوك**، ج٧، ص٢٧٦.
(١٢٩) السخاوي، **الضوء**، ج٣، ص٢٨٧.
(١٣٠) المقريزي، **السلوك**، ج٧، ص٢٨١.
(١٣١) المصدر السابق، ج٧، ص٢٨١.

ومن الحديد عشرة قناطر لعمل مسامير، وأربعين قطعة خشب لشد أروقته(١٣٢).

ويظهر مما سبق أن بعض السلاطين المماليك كانت لهم بصمات واضحة في رعاية البيت الحرام من أي ضرر قد يصيبه من أثر تلك السيول، كما لجأ بعض الناس إلى إزالة عتبة باب إبراهيم بصفتها أفضل وسيلة ممكنة وأسرعها لتصريف المياه من البيت الحرام. وقد التُجئ إلى مثل هذه الوسيلة عقب السيل الذي داهم المسجد الحرام سنة (٨٥٩هـ/ ١٤٥٤م)(١٣٣)، أي في عهد السلطان المملوكي الأشرف سيف الدين إينال العلائي (٨٥٧-٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦١م).

ومن الوسائل الأخرى التي استخدمت لمواجهة خطر السيول حفر قنوات في المسعى لتسهيل تصريف الماء، وجرى تنفيذ ذلك المشروع سنة (٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م) في عهد السلطان المملوكي الظاهر سيف الدين خُشقدم (٨٦٥-٨٧٢هـ/ ١٤٦١-١٤٦٧م) وهو العام الذي تعرضت فيه مكة لسيل كبير "لم يسمع بمثله فيما مضى"(١٣٤).

وللوقاية من آثار السيول في المسجد الحرام حرص عامة الناس على إزالة ما علق به من أتربة وأوساخ، فمثلاً بعد حدوث سيل أجياد ووادي إبراهيم في يوم الثلاثاء (١١ من

(١٣٢) المصدر السابق، ج٧، ص٢٨٢.
(١٣٣) السخاوي، **الذيل**، ج٢، ص١٠٣.
(١٣٤) المصدر السابق، ج٢، ص١٦٦.

جمادى الأولى ٨٧٦هـ/٢٧ أكتوبر ١٤٧١م)؛ جرى تنظيف المسجد "وجمع البطحاء والتراب وغربل ذلك وبطح المسجد الحرام بما خرج من البطحاء فكفى"[١٣٥].

وللسبب نفسه جرى تنظيف المسجد الحرام، وذلك عقب السيل الذي أصابه في يوم الخميس (١٥ من رمضان ٨٨٣هـ/ ١١ ديسمبر ١٤٧٨م)[١٣٦]. أما المرة الأخيرة التي جرى فيها تنظيف المسجد الحرام من مخلفات السيول؛ فكما يظهر أن ذلك الأمر كان عقب سيل وادي إبراهيم، الذي حدث يوم الجمعة (٢٣ من رمضان ٨٨٣هـ/ ١٩ ديسمبر ١٤٧٨م)، فقد أُنجز العمل خلال شهري شوال وذي القعدة[١٣٧]. أي في عهد السلطان المملوكي الأشرف سيف الدين قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/ ١٤٦٨-١٤٩٦م).

(١٣٥) ابن فهد، **إتحاف**، ج٤، ص٥٤٠.
(١٣٦) المصدر السابق، ج٤، ص٦٣٤.
(١٣٧) المصدر السابق، ج٤، ص٦٣٥.

الخاتمة:

تعرضت مدينة مكة المكرمة خلال العصر المماليكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) إلى سبعة وعشرين سيلاً، ويرتبط العامل الرئيس في تشكل تلك السيول بالطبيعة الجغرافية لهذه المدينة المقدسة، فمكة تقع في بقعة جغرافية منخفضة تحيط بها سلسلة من الجبال المرتفعة وبخاصة من الجهة الشرقية، وهذا ما يفسر لنا قوة اندفاع السيول من هذه الجهة.

لقد نتج من بعض السيول وفاة أعداد كبيرة من الناس، فمعظم تلك السيول حدثت ليلاً والناس نائمون، لذا كان ضررها أكبر ولم يستعدوا لمواجهتها أو الوقاية منها. ولم يقتصر ضرر تلك السيول على الإنسان فحسب؛ بل ألحقت أضرارًا فادحة بالمنشآت المعمارية (الدينية والمدنية)، وتسببت في تدمير بعض الأسواق التجارية، وجرف المزروعات.

وبرغم بعض الجهود التي بذلت من قبل بعض السلاطين المماليك لمواجهة تلك السيول، والحد من آثارها؛ فإن تلك الأعمال كما يبدو لم تكن كافية لإيقاف تلك السيول، أو الوقاية من ضررها؛ لأن تلك المنجزات كانت بحاجة إلى صيانة دائمة ومستمرة.

وتظهر بعض الصور الملحقة في نهاية البحث استمرار خطر السيول على مدينة مكة المكرمة حتى وقت قريب، ففي منتصف القرن الماضي بلغ الماء حول الكعبة نحو سبعة أقدام تقريبًا، لكن المملكة العربية السعودية سارعت مشكورة إلى اتخاذ مجموعة من الاحتياطات الهندسية للوقاية من خطر تلك السيول، ولا سيما في التوسعة الأخيرة للمسجد الحرام.

الملاحق

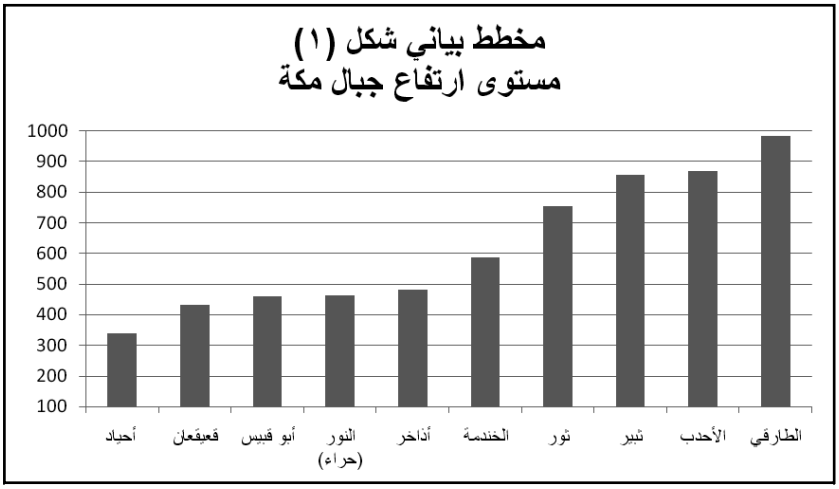
مخطط بياني شكل (١)
مستوى ارتفاع جبال مكة
1000
900
800
700
600
500
400
300
200
100
أحياد
قعيقعان
أبو قبيس
النور (حراء)
أذاخر
الخندمة
ثور
ثبير
الأحدب
الطارقي

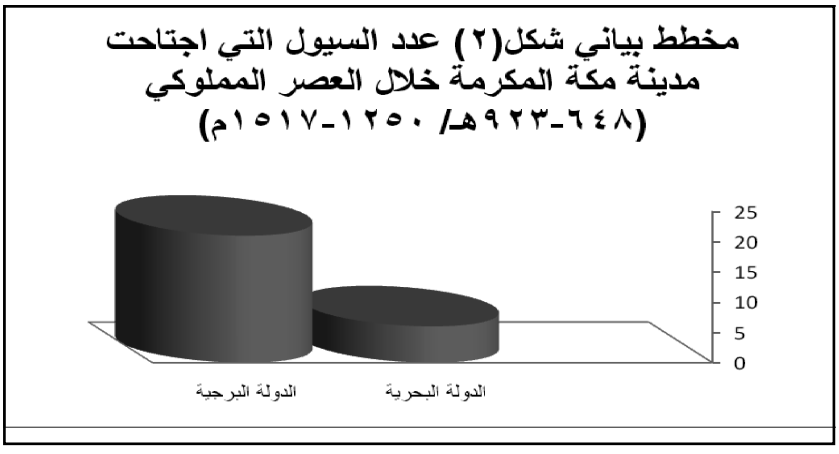
مخطط بياني شكل(٢) عدد السيول التي اجتاحت
مدينة مكة المكرمة خلال العصر المملوكي
(٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)
25
20
15
10
5
0
الدولة البرجية
الدولة البحرية

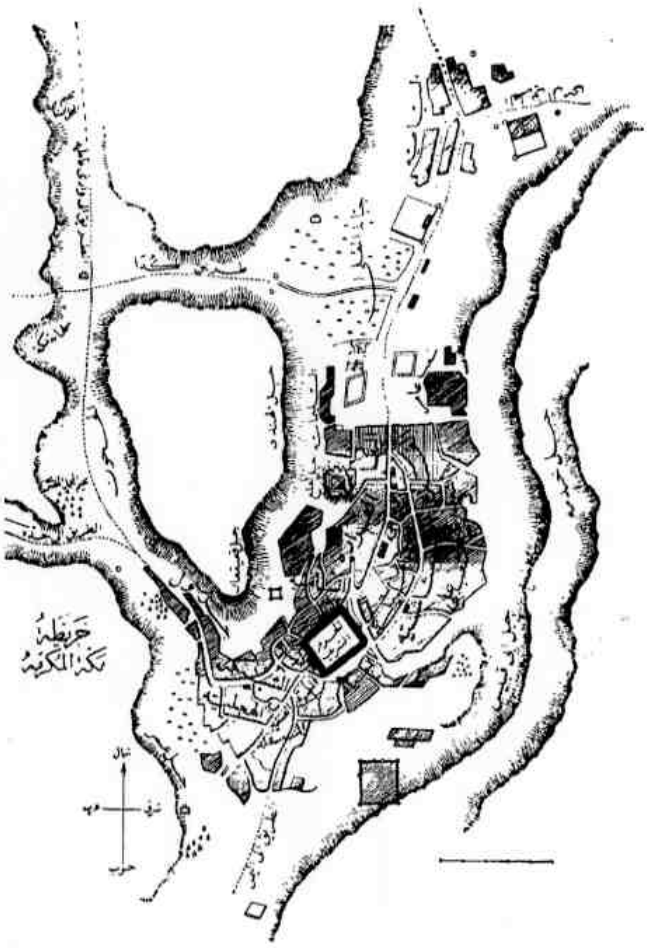

نقلا عن إبراهيم رفعت باشا، مرآة الحرمين، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٥م، ج١، ص١٧٩

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول، ربيع الثاني ١٤٣٧هـ/ يناير ٢٠١٦م، السنة الثانية والأربعون
الدارة

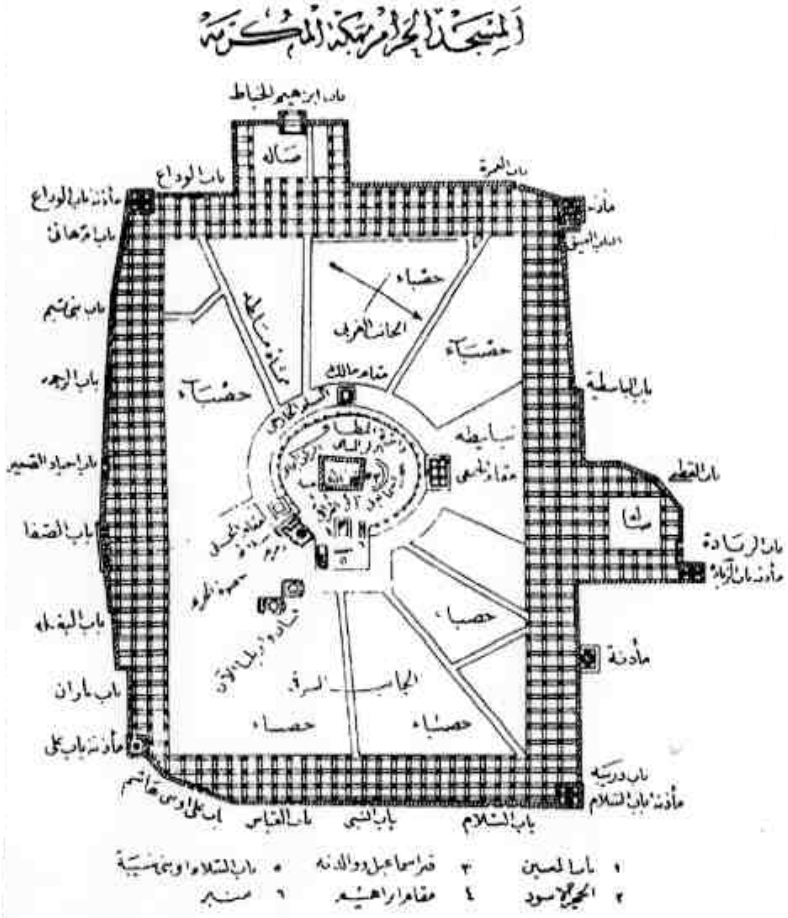

نقلا عن إبراهيم رفعت باشا، مرآة الحرمين، جـ١، ص٢٢٨

صورة نادرة للحرم يظهر فيها ارتفاع الماء إلى عتبة باب الكعبة
نقلاً عن الشبكة العنكبوتية

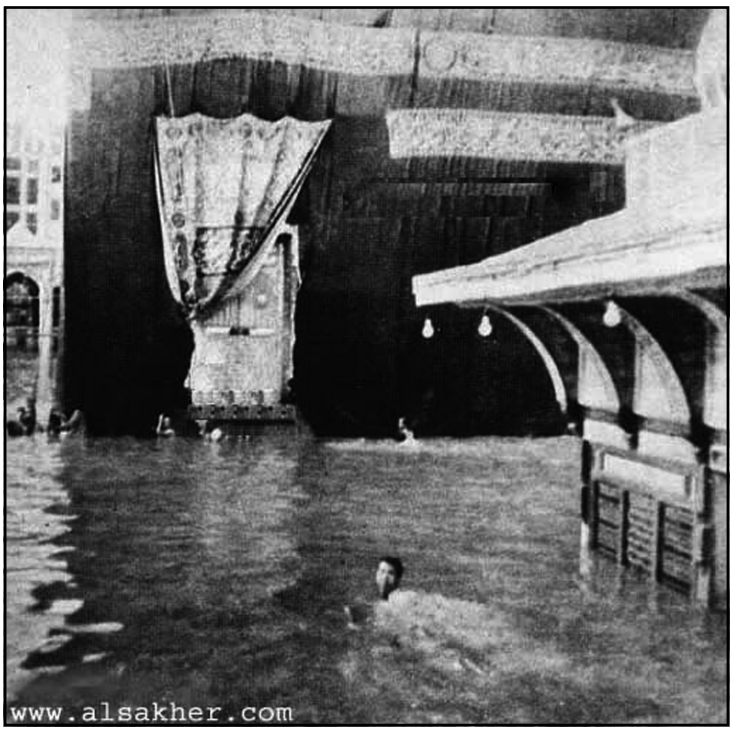

صورة نادرة للحرم أخذت عام ١٩٤١م ومستوى ماء المطر يصل إلى الحجر الأسود
والطواف حول الكعبة بالسباحة
نقلاً عن الشبكة العنكبوتية